

بقلم الأستاذة الزاهري العضو الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين

□ □ □ □ □ □ ... وركبنا إلى «الزيارة» إحدى المسيرات العمومية الكبرى. ولم تكد تتحرك بنا حتى استوقفنا جُديان اثنان من رجال الدرك (الجندرمة) فدفع إليهما صاحبهما خمسين فرنكا، ودفعا إليه هما بدورهما وصلا بهذا المبلغ، وكل سيارة تقل الركاب من عين كرمان إلى مكان الزيارة لا بد لها أن تؤدي خمسين فرنكا ضريبة بلدية عين كرمان، ومع هذا فأهالي هذه البلدة لا يزالون يعانون من جباة الضرائب كل عنت وإرهاق.

□ □ □ □ □ □ وتراعى أمامنا سهل فسيح مُدرامي الأطراف، ولكنّه كان كالبحر المعجاج يتلاطم بالمضارب والمقباب، وبالأخبية والخيام وبالخيل والبغال والحُمير، وبهذه الخلائق التي يموج بعضها في بعض، والتي لا يأتي عليها عد، ولما يأخذها إحصاء، ذلك هو مكان الزيارة، وأولئك هم الزائرون والزائرات.

□ □ □ □ □ □ وعندما نزلنا في مكان الزيارة أحاط بنا وبسيّرتنا عدد وافر من النساء، وهنّ سافرات غير مُتجبات على نفس الهيئة التي تراهن عليها في بيوتهن وأخذت طائفة منهنّ بأيدي طائفة من الرجال اللذين كانوا معنا في السيارة، وتغلّغت كل واحدة بصاحبها في ذلك البحر الزاجر من الخلائق، وكان من نصيبي أنا أن تقدمت منّي فتاة ذات حسن وجمال، وقد اعتدال، في عينيها حلوة وسحر، وفي حديثها عذوبة وسمير، وفي ملامحها دهاء ومكر، وقالت لي: أأنا تحبون أن يغض الله لكم؟! قلت: بلى، ومن ذا الذي لا يحب أن يغض الله له؟! قالت: هلم بي إذن إلى هذه الأرجوحة ولتركب معي هذه «الطيارة» وادفع عنّي ثمن الطيران، وكان أصحاب الأراجيح قد انهالوا على سيدي عابد بأكثر من مائة وخمسين أروجة، وكانت كلّها لا تفتقر عن العمل لحظة واحدة كل أيام الزيارة ليلا ولما نهارا. وواصلت كلامها وقالت: نظير خمس دقائق كاملة، ولما يُكلّفك ذلك غير فرنكين فقط، قلت: وإذا سقطت بنا هذه «الطيارة» إلى الأرض، أفلا يُكلّفنا ذلك حياتنا، ويُكلّفنا على الأقلّ علاجا كثيرا، وعناء طويلا؟! قالت: لا تخف، إن ها ليست «طيارة» حقيقية بل هي «ألعوبة» من «الألعاب» قد رُبّطت ربطا مُحكما على هذا القطب الذي تدور حوله هي وأخواتها، فقلت لها: خذي هذا المبلغ، وهو يكفيك ثمنا لهذا الطيران بضع مرات، ودعيني أنا وشأنني واتركي سبيلي، ثم نضحتها بضعة فرنكات بقبضتها، وقالت: ولكنني أنا في حاجة إلى من يركب معي كي يحميني من السقوط، ويُساهدني إن اقتضى الحال وانظر إلى هؤلاء الأوانس والمفتيات اللاتي لا يأخذهن إحصاء قد ملأن هذه الأراجيح كلّها، وامتطين كل ما فيها من «طيارات» و«سيارات» و«عربات» و«زوارق» ومراكب ومقاعد وما من واحدة منهنّ إلّا وقد ركب إلى جانبيها صاحبها وخليتها من الشبان، قلت: ولكنني أنا لا أصلح أن أكون لك صاحبا ولما خليلا، قالت: ولمأذا؟! قلت: لأنني لست من هؤلاء الشبان، قالت: ومن تكون أنت إذن؟! قلت: أنا من الشيوخ، قالت: «بلهجة الاستنكار» أنت من الشيوخ وليس في لحيتك شعرة بيضاء؟! إن هذا لعجب عجاب، واستنجدتُ أنا بأحد معارفي فقال لها دعيه إنه عالم، قالت: وهل العالم خير من «المرابطين»؟! قال: لا، قالت: كم من ليلة لهوتها مع المرابطين! قال لها ولكن هذا عالم لا يرغب في ريبه ولما لهو، قالت: يجب عليه إذن أن يقعد في بيته وأن لا يحضر هذه «الزيارة» التي هي كلّها ريبه ولهو وهنا عجزنا هن مجاوبتها فتركناها ومضينا نشق طريقنا بين الأخبية والخيام وبين هذه الأمواج المتلاطمة من النساء والرجال المخلطين اختلاطا فاضحا مُذراحمين «مُذراحمين»! وانتهينا إلى خباء كبير قالوا إنه مقهى، فإذا هو يتراص «رجلا وامرأة» كتراص علب المسردين «قد جلسوا على الكراسي وعلى الأخشاب وعلى الأرض، ووقفوا على سائر جهات الخباء يستمعون إلى الغناء والمطبول والمزامير، ويتفرجون على النساء الرقصات، وكان في هذا الخباء أربع راقصات يرقصن وسط الخباء في مساحة عرضها نحو ذراعين وطولها نحو عشر أذرع، يمشينها جيئة وذهابا، وليس هؤلاء الرقصات هن من اللاتي يحترفن الرقص ويتعاشين عليه، بل هن من المخصيات المؤمنات غالبا، ومن المؤمنات قليلا، ووقفنا ننظر، وعبيت امرأة بالرقص وهمت بالجلوس فتلقاها رجل بذراحيه فاستسلمت إليه هي الأخرى وكان بعض الفضوليين المسفهاء — ويأما أكثر أهل السفه والفضول في هذه الزيارة — يتوسم أوجه النساء وكل ما وقعت عينه على امرأة عليها مسحة من الجمال إلّا وقام إليها أو تقدم منها يطلب إليها أن ترقص قائلا لها: «هذا دورك يا زعرورة» وقل ما تمناع امرأة في هذا المطالب أو ترفض هذا الاقتراح، ولقد وقفت إلى جانبيها ثلاث نسوة ثالتهن سمراء في مقلتيها السحر مُستتر كأجمل ما ترى، وراها أحد الفضوليين فقفز إليها يتخطى رقاب النساء والرجال ويتعسف هذه ويمسك بتلك حتى بلغها فأخذ بيدها ونثرها إليه يطلب منها أن ترقص، فاعتذرت بأنّها لا تحسن الرقص وبأنّها لم ترقص قط ولما مرة في حياتها فألح عليها الرجل فأبت وامتنعت، فقام في وجهها كثير من النساء والرجال يلومونها ويقولون لها: ويحك أيّتها المرأة أما

تتفضّلين علينا برقصّة . . . << زيارة >> لسيدي عابد وصدقة عليه . !! فهمست أنا في أذن أحد الرفقاء وقلت له : لقد صار هذا الرقص الخليع صدقة يُتقرب بها إلى الله ويُهدى << ثوابها >> إلى الأولياء . وقالت لها امرأة أن هم يريدون أن يُمتعوا أبصارهم بالنظر إلى محياك الجميل وتغريك اللامع الأملئ وعينيك المسّاحرتين وأنت طول عمرك مُخبّأة مَدسوسة فلمْ جاءت هذه << الزيارة >> المباركة حرمت نفسك من ثمرتها ثم جعلت تقول لها بلهجة حازمة : هذا يوم الحرية . هذا يوم النزاهة . هذا يوم اللّهو واللعب هذا يوم التمتع والتلذذ فهل فهمت أيّتها الفتاة << المهبولة >> الحِمقاء . وجاءها وبها بشيخ كبير في عُنه << سبحة بأكورة >> وقالوا لها هذا هو المُقدم . وجعلوا يصيحون : قل لها يا مُقدم ترقص لنا . فتقدم المقدم منها وقال لها : لماذا لا ترقصين يا بُنيّتي ؟ ألسنت جئت << بنيّة >> الزيارة ؟ فقالت له الفتاة مُدوسلة ضارعة : ما نعرفش نرقص يا سيدي المقدم . . . >> فقال لها : قومي وقفي في مكان الرقص باش يشوفوك الموغش وما ترقصيش ! . . . أيّ أنه يأمرها أن تقوم وتقف حيث ترقص المراقصات ليتفرج عليها (الموغش) أي الشبان . فأدركها المخجل والحياء ولم تستطع أن تلبّي ولا هذا الماقتراح . ووجمت وجوما تاماً إزاء هذا الانتقاد على سن لوكها هذا من المزائرين والمزائرات حتّى كأنها قد ارتكبت خطيئة أو إثمًا . ومضت لسبيلها وهي مُرتبكة حيرى . فتذكّرت أنا قول الشاعر :

وأشدّ النساء حلاوة *** حال تريك تحير العذراء

□ □ □ □ □ ولم تكّد ننصرف إلى مكان آخر حتّى أحسست يدا ورائتي تُجاذبني ردائي فالتفت فإذا الفتاة بعينها ومينها وبادرتني بقولها : عزمك بسيدي عابد أأعطتني برنوسك هذا لأتذكّر فيه وأتفرج على هذه المرأة فقد أعجبتني رقصها . . . قلت : ولماذا تتنكرين ؟ قالت . أما رأيت ما عملوا بي الآن ؟ . . . قلت : وأين حائكك الذي تحتجيبين به وتتلغين فيه ؟ فرميتني بنظرة حزراء نكراء . وقالت بلهجة الاستنكار : << بوه . . . تبغي لي العمى والجدرى ! ؟ >> . . . قلت لها : حاشا لله . نعيذك بالله من كل سوء وكيف ذلك ؟ قالت : كل امرأة تحتجب في سيدي عابد فإنها لا بد أن يشوه المجدري وجهها . ولما بد أن يُصيبها العمى . فقلت لها : يكذبون عليك يا بُنيّتي . قالت : لا تقل بُنيّتي . قلت : وماذا أقول ؟ قالت : قل لي يا أُختي ! وأنت بعد لم تبلغ من العمر أن تكون أبا لفتاة في مثل سنّي . بل أنا وإيّاك في العمر سواء فأنا أُختك ولست بنتك . قلت : لقد تجاوزت أنا عهد الشّباب . ودخلت في عهد الأبوة وأنا لم أكن أبا لأحد بعد وأمّ أنت فلا تزالين في ميعة الصبى وفي مثل عمر الموردة العبيقة العطرية أو الزهرة المُفتحة الزاهية . فقالت هذا كلام جميل . ولكنني لا أريد أن أسمع من أحد هنا أن يقول لي : << يا بُنيّتي >> بل أحب أن تُدادينني : << يا أُختي >> أن أنا في أيّام << الزيارة >> وهي لنا معشر الفتيات المُحتجبات أيّام مرج وسلوى نرى فيها المصوّء ونرتاح فيها من المتقيّد بالأوضاع والمتقاليد فأنا أريد أن أُجد لي في هذه الزيارة << أخا >> يشاركني في (خلوتي) المرح والمطرب الزهو والمانشراح ويطارحني — إن اقتضى الحال — أحاديث الحب والمهوى . وما أنا بمريضة حتّى أحتاج إلى أب يشملني بعطفه ومواساته . . . فعجبت أنا من هذه الفلسفة العميقة . ثمّ قالت أما تُعطيني (برنوسك) لتتبرك ؟ فقلت لها لتتبرك بمن ؟ بي أنا أم ببرنوسي أم بك أنت أم بسيدي عابد ؟ قال : بل يتبرك برنوسك بي وأتبرك به أنا . ولما دخل لسيدي عابد في هذا . وهنا تداخل فتى كان يستمع لما نقول ورمى إليها ببرنوسه وقال لها : خذيه ودعي هذا الرجل فإنّه << طالب >> ولقد قالت العرب : (أعطني بنتك لطالب حتّى تلقى لها رجلاً ! . . .) ثمّ دنا منها وجعل يده في يدها وقال لها : هيّا بنا إلى المأرجوحة ثمّ غابا عن أبصارنا . ومضينا نحن نمشي على القبور . وكان الناس قد نصبوا أخبيتهم ومضاربهم فوق هذه القبور . ولما سيما جماعة القصابين (الجزارين) فقد اتخذوا هذه المقبرة مسلخاً (بطوار) . وانتهينا إلى قبة عالية منصوبة فوق المقبرة هي أيضاً . وعليها زحام شديد . وسمعت امرأة تقول لزوجها : يا قدور أمسك عليك طفلك ودعني أنا أدخل هذه القبة فأرقص فيها زيارة سيدي عابد . . . فتناول الرجل ولده الرضيع من يدي أمه . ودخلت هي ترقص ولاحظت أهل هذه القبة العظيمة أن راقصة ترقص في موضع واحد وتتجه إلى جهة واحدة فطلبوا منها أن تذهب وتجيء في رقصها . وأن تلتفت إلى سائر الجهات ليتمت ع الرجال برؤيتها فأبّت . وقام لها رجل وأدار وجهها إلى جهة أخرى وقال لها حاجتنا بوجهك وصدرك . لا بظهرك ولا بقفالك . ولكنّها رجعت كما كانت . فقال رجل آخر وأدارها أيضاً وعاتبها واستنكر الناس منها هذا السن لوك فاعتذرت عنها امرأة وقالت : دعوها فهي (مُحشمة) من زوجها وإخوتها وأبناء عمومتها . لا تلتفت في رقصها إليهم خجلاً منهم وحياء . فعجبت أنا لهذه المرأة وعجبت لزوجها وذويها . عجبت لها كيف ترقص في حانة بها نحو ثلاثة آلاف من المتفرجين والمتفرجات وهي سافرة مكشوفة . ومع ذلك فهي تتظاهر بأنّها (حشمانة) . وعجبت لزوجها وذويها كيف انتزع الله من صدورهم الغيرة العربية والغيرة الزوجية والغيرة الإنسانيّة وأيضا الغيرة الحيوانيّة التي تراها في الحيوان الذكر على أنثاه .

محمد السعيد الزاهري

□

<< زيارة سيدي عابد >> !! = [1] =

□ □ □ □ □ □ يظهر أن المقراء الكرام قد اهتموا والاهتمام واعتنوا العناية كُلّها بالمقالات التي نشرناها عن (زيارة سيدي عابد) ووردت على الأستاذ الزاهري كثير من الرسائل بهذا الشأن، فالشيخ المفضل مُفتي عين الصفاء (بجنوب وهران) قد سرورا عظيمًا بهذه المقالات، والأستاذ عبد القادر محداد يرى أن هذه المقالات هي لَوْن جميل من ألوان الأدب الرفيع في أسلوب مُبتكر جذاب لم يسبق لنا أن رأيناه في هذه البلاد.

□ □ □ □ □ □ وكتب إليه صديق آخر يقول: << لو لم يكن من فائدة في زيارة سيدي عابد إلّا هذه المقالات المُمتعة للطَّلبة لكان ذلك وحده دليلًا على ما في هذه الزيارة من خير وصلاح!! ولنا أن نعد هذا من كرامات هذا الولي الصالح، ونحن نتقدم إلى هؤلاء الفضلاء جميعًا بالمشكر الواضر الجزيل.

□ - :المصراط السوي العدد المسابح عشر [1]-